

الجاب الأول

obeikandi.com

الفصل الأول

الجزيرة العربية

ـ تسميتها

ـ حدودها

ـ مُناخها

ـ أثرها في حياة سكانها

obeikandi.com

الجزيرة العربية

تسميتها - حدودها - مُناخُها - أثرها في حياة سكانها

كانت الجزيرة العربية تعرف بهذا الاسم منذ العصر الجاهلي . قال الهمداني^(١): «سميت جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها». وفي الواقع ما هي إلا شبه جزيرة لإحاطة المياه بها من ثلاث جهات في الجنوب والغرب والشرق .

يحدها من الشرق خليج عمان ، والخليج العربي ، ومن الجنوب بحر العرب ، ومن الغرب البحر الأحمر أما من الشمال فالعراق والأردن . وهي أعلى ما تكون غربا ثم تنحدر إلى الشرق ، وهي من أشد بلاد العالم جفافا وحرارة ، ليس فيها أنهار دائمة الجريان ، ولكن بها أودية يجري فيها الماء حيناً ، ويجف حيناً ، كوادي حنيقة ووادي^(٢) الرمة ووادي الحمض . والأمطار عامة قليلة إلا في بعض المناطق الجنوبية والشمالية الغربية فتَهطل أمطار موسمية . وقد كونت حياة الجزيرة القاسية من سكانها أبطالاً أشداء لا يهابون الموت ولا يخافونه ، وعودتهم الصبر والجلد وشدة البأس وقوة المراس ، كعنزة ، وعمرو بن معد يكرب وسواهم ، ودفعت سكانها إلى كثرة الرحلات في طلب العشب والكلأ ، وإلى كثرة النزاع حول مناطق الرعي والعشب وموارد المياه ، فكثرت الحروب عندهم ، واتخذوا منها وسيلة من وسائل العيش ، يغرون على القبائل المجاورة حتى ولو كانوا إخوة لهم : يقول القُطامي^(٣):

(١) صفة جزيرة العرب ٤٧

(٢) انظر تحديد هذه الأودية في تاريخ العرب قبل الإسلام (ط : بيروت ، ١ / ١٦٠ - ١٦٢) .

(٣) القُطامي بضم القاف وفتحها لقب غلب عليه واسمه عمير بن شُبيم .

وَكُنَّ إِذَا أَغْرَنَ عَلَى جَنَابِ وَأَعْوَزُهُنَّ نَهْبٌ حَيْثُ كَانَا
أَغْرَنَ مِنَ الضُّبَابِ عَلَى حُلُولِ وَضَبَّةٌ إِنَّهُ مَنْ حَانَ حَانَا
وَأَحْيَانًا عَلَى بَكْرِ أَخِينَا إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا

ولذا كانت حياتهم حياة حربية ، تقوم على القتل والنهب والسلب وسفك الدماء ، فالقبيلة دائماً شاكية السلاح ، مغيرة أو مغار عليها واطرة أو موتورة يقول دريد بن الصمة : (١)

أَبَى الْقَتْلَ إِلَّا آلَ صِمَّةَ إِنَّهُمْ أَبَوْا غَيْرَهُ وَالْقَدْرُ يَجْرِي إِلَى الْقَدْرِ (٢)
فَأِمَّا تَرَيْنَا لَا تَزَالُ دِمَاؤُنَا لَدَى وَاتِرٍ يَسْعَى بِهَا آخِرَ الدَّهْرِ
فَأِنَّا لِلْحِمِّ السَّيْفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ وَنُلْحِمُهُ حِينًا وَلَيْسَ بِذِي نُكْرٍ
يُغَارُ عَلَيْنَا وَاتِرِينَ فَيُشْتَقَى بِنَا إِنْ أَصْبَنَا أَوْ نَغِيرُ عَلَى وَتِرٍ
قَسَمْنَا بِذَاكَ الدَّهْرِ شَطْرَيْنَ بَيْنَا فَمَا يَنْقُضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلَى شَطْرِ

شريعتهم وقانونهم هو الأخذ بالثأر يقول تَابُط (٣) شراً : (٤)
قَلِيلٌ غِرَارِ النَّوْمِ أَكْبَرُ هَمِّهِ دَمُ الثَّأْرِ أَوْ يَلْقَى كَمِيًّا مُسَفَّعًا (٥)

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي : ٢ / ٨٢٤ - ٨٢٦ .

(٢) قوله والقدر يجري إلى القدر يريد كما قُدرُوا للقتل قُدِّرَ القتل لهم .

(٣) هو ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي ، أبو زهير من مضر ، شاعر عداء من فتيك العرب في الجاهلية ، وقد ورد أنه سمي تَابُط شراً ، لأنه تَابُط سيفاً وخرج فقيلاً لأمه : أين هو ؛ فقالت تَابُط شراً ، وخرج وقيل إنه كان احتضن شيئاً ثقيلاً ، فسئل ما معك في حضنك ؟ فرمى بثعبان عظيم ، فقيلاً قد تَابُط شراً ، وقيل إنه ينظر إلى الطي في الفلاة فيجري خلفه فلا يفوته .

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي : ٢ / ٤٩٢ .

(٥) غرار النوم : القليل من النوم ، فهو لا ينام الغرار فكيف بما فوقه ؟
الكمي : الذي يُكْمِي شجاعته لوقت الحاجة إليه ، أو الذي يتكفى في سلاحه .
مسفعا : متغير لون الوجه من لفح السموم .

فالثَّارُ لقتل الأب أو القريب ، والثَّارُ للعرض والشرف ، والثَّارُ لحماية المستجير . والويل لمن تخلَّى عنه من ألسنة الشعراء ، أغار بنو شيبان على إبل لقريط بن أنيف^(١) فاستنجد قومه فلم ينجدوه فلجأ إلى بني مازن فأنجدوه وقال معيرا قومه : (٢)

لو كُنْتُ من مازنٍ لم تستَحِ إبلُ بَنُو اللقيطة من ذُهلِ بنِ شَيْبانا
إذا لَقِيتُهم بنصريٍّ معشرٌ خُشِنُ عند الحفيظة إن ذو لُوثَةٍ لَنَا (٣)
قومٌ إذا الشَّرُّ أبدى ناجذِيه لهُم طارُوا إليه زرافاتٍ ووُحْدانا (٤)
لا يسألون أخاهم حين يندُبُهُم في النائباتِ على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عَدَدٍ ليسوا من الشَّرِّ في شيءٍ وإن هانا
يَجْزُونَ من ظُلمِ أهلِ الظُّلمِ مَغْفِرَةً ومن إِساءَةِ أهلِ السُّوءِ إِحْسَانا
كَأَن رَبَّكَ لم يَخْلُقْ لَخَشِيَّتِهِ سواهُم من جميعِ الناسِ إنسانا
فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا شدوا الإغارةَ فُرسانا ورُكبانا
يفتخرون بإيقاد نار الحرب يقول عامر^(٥) بن الطفيل : (٦)

وأنا ابنُ حربٍ لا أزالُ أشبُّها سَمَرًا وأوقِدُها إذا لم تُوقَدِ

(١) هو قَريط بن أنيف العنبري التميمي شاعر جاهلي . وقيل إن الأبيات المذكورة لأبي الغول الطهوي .

(٢) شرح الحماسة للبربري : ١ / ٥ - ١٠ والمرزوقي ١ / ٢٣ - ٣١ عدا الأخير

(٣) المعشر : اسم للجماعة ، خُشِن : جمع خَشِنَ وأخْشَنَ .

الحفيظة : الخصلة يُحفظ لها ، أي يُغضب ، وقيل هي الحميّة ، اللوثة : الحمق والاسترخاء والضعف

(٤) الناجذ : ضرس الحلم وإيدائه ، مثل لاشتداد الشر . طاروا : أسرعوا . الزرافات : الجماعات تُشتق من الزَّرف وهو الزيادة على الشيء .

(٥) عامر بن الطفيل شاعر جاهلي من سادات قومه كنيته أبو علي . ولد ونشأ بنجد ، توفي سنة

١١١هـ .

(٦) الأصمعيات : ٢١٦ .

وها هو النُّكْرِي^(١) يقول حين شاب رأسه وزعم الغواني أن مشيبه ذاك لعلو
سنه وتقدم عمره . (٢)

زعم الغواني أن أَرْدَنَ صَرِيْمَتِي
وَضَحِكُنْ مِنِّي سَاعَةَ وَسَلَّنَنِي
مَا شَبْتُ مِنْ كِبَرٍ وَلَكِنِّي أَمْرُ
أَحْمِي أَنَسِي أَنْ يُبَاحَ حَرِيمُهُمْ
مِنْ مَعْشَرِ يَأْبَى الْهُوَانَ أَخُوهُمْ
عَزُّوا وَعَزَّ بَعْزُهُمْ مِنْ جَاوَرُوا
إِنْ يُطْلَبُوا بِجَرِيرَةٍ يَنَافُونَهَا
فَبِإِضَاعِ رَأْسِهِ لَيْسَ لِمَا زَعَمْنَاهُ ، وَإِنَّمَا هِيَ الْحُرُوبُ شَبَّيْنِ رَأْسَهُ يَقْتَحِمُ
الْأَهْوَالُ ، وَيَذُبُّ عَنِ الْحَرِيمِ ، وَهُوَ مِنْ مَعْشَرِ سَادَةِ أَبَاةٍ يَحْمُونَ الْجَارَ ، وَيَجْنُونَ
الْجَنَايَةَ فَلَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ ثَأْرٌ .

حروبهم تبدأ صغيرة ، ثم تقوى وتشتد بمرور الزمن ، فتجر إليها من لا
ناقة له فيها ولا جمل يشترك فيها الراغب والكاره ويصير لها عدوى كعدوى
الجرب فيعم شرها وينتشر بلاؤها^(٩) .

(١) هو عبد الله بن جُنَح النُّكْرِي .

(٢) الأصمعيات : ١١٤ أ .

(٣) الصريمة : القطيعة .

(٤) القناة هنا : العصا ، يريد أن النسوة يسألنه : متى أحوجه الكبير إلى أن يدب على العصا .

(٥) عنيت : قُصِدَتْ ، أي أرادته أعداؤه بالأذى .

(٦) الجحجج : السيد الكريم .

(٧) الذرا : الأعالي ، الغلاصم : جمع غلصمة ، تستعار لمعنى الشرف . الهامات : الرؤوس .

(٨) الجريرة : الجناية . ينافونها : يبعدونها ، أي إنهم إذا طلبوا ثأر جناية جنيت عليهم بعدوا بها إلى

أقصى الغايات . الترات : جمع ترة ، وهي الثأر .

(٩) شرح الحماسة للمرزوقي : ١ / ٤٠٧ - ٤٠٨ .

الشَّيْءُ يَبْدُوهُ فِي الْأَصْلِ أَصْغَرُهُ وَلَيْسَ يَصْلَى بِكُلِّ الْحَرْبِ جَانِبُهَا
وَالْحَرْبُ يَلْحَقُ فِيهَا الْكَارِهُونَ كَمَا تَدْنُو الصَّحَا حُ إِلَى الْجَرْبَى فَتُعْدِيهَا
عركتهم الحروب وذاقوا مرارتها ووصفوها فأجادوا . قيل لعنترة الفوارس
صف لنا الحرب فقال^(١) : أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى .
ووصفها عمرو بن معد يكرب شاعرنا حين سئل فقال^(٢) : مرة المذاق إذا
قلصت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن ضعف عنها تلف . ووصفها
في شعره فقال^(٣) :

الحربُ أولُ ما تكون فتيةً تسعى ببزتها لكلِّ جهُولٍ
حتى إذا حيت وشبَّ ضرامُها عادتْ عجوزاً غيرَ ذاتِ حليلٍ
شمطاءً جزتْ شعرَها وتنكرتْ مكروهةً للشِّمِّ والتَّقبيلِ
ولم يكن القتال مقصوراً على الرجال دون النساء بل شاركت المرأة الرجال
في الحروب ومضت مع الغزاة تنشد الأهازيج وتدق الدفوف وتسقي العطشى
وتضمّد الجرحى وتقول الشعر في الافتخار بقومها وانتصاراتهم . تقول
خولة بنت الأزور^(٤) :

وإنّا معشر من مات منا فليس يموتُ موتُ المُستكينِ
وتقول صفية بنت ثعلبة^(٥) :

شيبان قومي هل قبيلٌ مثلهم؟ عند الكفاح وكَرَّةِ الفرسانِ
لا والذوائب من فروع ربيعةٍ ما مثلُهم في نائب الحَدَثانِ

(١) العقد الفريد ٩٤ / ١ .

(٢) الشعر والشعراء ٣٧٣ / ١ .

(٣) الديوان ١٥٦ .

(٤) شاعرات العرب / ١١٠ .

(٥) شاعرات العرب / ١٨٩ .

قوم يُجَيرون اللهيف من العدا ويحاطُ عمري من صروف زماني
ترد الهياج بنو أبي لا تتقي مسطى العدو وصوله الأقران
وتقول الخرنق بنت بدر بن هفان: (١)

لا يبعِدُنْ قومي الذين هم سُمُّ العداة وآفةُ الجزر
النازلون بكل معتركٍ والطيبون معاقد الأزر
الضاربون بحومة نزلت والطاعنون وخيلهم تجري
قوم إذا ركبوا سمعت لهم لغطا من التأبيه والزجر (٢)

واشتهر في كل قبيلة فارس ، فكان يقال (٣) فارس اليمن في بني زبيد عمرو
ابن معد يكرب ، وفارس غطفان الربيع بن زياد العبسي ، وفارس بني تميم
عتيبة بن الحارث بن شهاب أحد بني يربوع ، وفارس عمرو بن تميم طريف
ابن تميم العنبري ، وفارس دارم عمرو بن عمرو بن عدس ، وفارس سعد
فدكي بن أعبد المنقري وفارس الرباب زيد الفوارس بن حصن الضبي وفارس
قيس عامر بن الطفيل ، وفارس ربيعة بسطام بن قيس .

وهكذا كان العرب في جاهليتهم مفطورين على القتال ، مطبوعين على
الحرب رجالا ونساء ، من العار عندهم أن يموت المرء على فراشه حتف أنفه ،
يقول السموءل بن عاديا :

وما مات منا سيدٌ حتفَ أنفه ولا طُلَّ منا حيثُ كان قتيلُ (٤)
تسيل على حدّ الطُّبَاة نفوسُنا وليس على غير السيوف تسيل

(١) شاعرات العرب / ٩٣ - ٩٤ .

(٢) التأبيه : الصوت .

(٣) العمدة : ١٩٢ / ٢ - ١٩٣ .

(٤) العقد الفريد : ١ / ١٠١ .